

## الفصل الثالث

خلافة عبد الملك بن مروان وسياسته

obeikandi.com

## خلافة عبد الملك بن مروان وسياسته

اين الحجاج ولماذا لم يظهر؟

سيقول القارئ.

- ما بال الحجاج لا يزال بعيداً عنا؟؟

نريد المعرفة عن حاكم العراقيين، على ضوء الأبحاث الجديدة، والتحقيقات الحرة القائمة على الحقيقة وعلى الحقيقة وحدها، ولكن الحجاج لم يكن ابن ساعنة لقد خلقته حوادث، وكونته فتن، وسوته رجلاً ثورات ومنازعات واختلافات، ضاق الناس بها، وضافت بهم، فخرج من كل هذا الشخص الغريب الذي يسميه التاريخ الحجاج ابن يوسف، والذي نسميه، صورة مصغرة؛ عن العصر الأموي الأول، وما اضطرب فيه من أحقاد، واصطدم من منافع وانتثر من منازعات، وإذا فالعصر الذي نحاول التأريخ له، يصح تسميته بعصر الحجاج لأنه غلب عليه وفشا أمره فيه، ولأنه كونه على رأيه، وسواه على رغبته، وسيره وفقاً لنظام جديد في الحكم لم يكن العرب يألفونه، ولا ينتظرون مثله، وإنما كان جديداً بكل معنى الكلمة، جديداً في جدته، حديثاً في جبروته، غريباً في ألوانه، فخرج العصر والحالة هذه ينتسب إليه، ويلتصق به، وإذا هو عصره وإذا الحجاج شخصيته الكبرى لا غبن ولا استذمام.

ولي عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ للهجرة (٦٨٥ ميلادية) والبلاد الإسلامية في غاية الاضطراب والتنافر.

كما في الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله بالخلافة، وكان العراق يضطرب في فرق ثلاث: زبيرية، بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته، وشيعته، تدعو إلى آل البيت، وخوارج، يريدون الأمر شورى بين المسلمين. وأما سورية فكانت تؤيد بني أمية، وكذلك مصر. وأما بقية البلاد الإسلامية فكانت لا تستقر على حال، وبعضها كان يترقب الفرص ليرى لمن تكون الغلبة والظفر.

**من هو عبد الملك بن مروان؟**

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ للهجرة بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وكان يضرب بأمه المثل

في حسن الخصال، وجميل الصفات، ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً لبيباً، وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد ابن المسيب، وعروة ابن الزبير. وقال الشعبي: ما ذكرت أحداً، إلا وجدت بي الفضل عليه، ألا عبد الملك فيني ما ذكرته حديثاً ألا زادني فيه، ولا شعراً ألا زادني فيه. ونشأ نشأة علمية فعرف بالشجاعة والخبرة والعلم والأدب، وكان قوياً جباراً شديد البأس، بعيد النظر.

ترك مروان ابن الحكم لابنه عبد الملك إرثاً مليئاً بالاضطراب والقلق تغمره الثورات، وتمزقه العصبية المتناحرة المتنافرة المتسابقة إلى الحكم، ولكن عبد الملك كان رجلاً قوياً، وإدارياً عظيمًا، وكان إلى ذلك رجلاً لا تزعجه الحوادث، ولا تخيفه الثورات، حتى يروي (المسعودي) عنه أنه لما سار سنة ٦٦ للهجرة على رأس جند الشام إلى العراق، أتاه وهو في الطرق مقتل عبيد الله ابن زياد، وانهزام جنده، وأتاه بناء فشل القائد الذي أرسله والده لحرب ابن الزبير في الحجاز، ومقتله، ثم جاءه خبر دخول جند الزبير أرض فلسطين ولحاق مصعب ابن الزبير بهم، ثم جاءه أخيراً سير إمبراطور الروم ونزوله المصيصة في طريقه إلى سورية، ثم جاءه أن عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها، وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما، إلى آخر ما هنالك من الأخبار التي تذهب بعقل الحليم، وتبعث على اليأس، وتوقع الفشل، ومع ذلك نرى عبد الملك يظل رابط الجأش، شديد الإيمان بنجمه وكفاءته ومقدرته، حتى لقد تقبل هذه الأخبار جميعها بالابتسامة وانطلاق الوجه، وأخذ يقلب وجوه الرأي يبحث أحسن السبل لتثبيت ملكه وتوطيد عرشه.

ويظهر أن عبد الملك لما أحس باضطراب الأمر حوله، راح يتريث في حركاته وزخوفه، فلم يتقدم إلى استباق الحوادث، ولا راح يحارب خصومه في الحجاز والعراق وعلى الحدود العربية البيزنطية وهم كثير، بل أخذ يتحايل للأمر، ويرتقب الحوادث، فترك ابن الزبير يقاتل الشيعة في الكوفة والخوارج في مختلف البلاد، لا يتعرض لهؤلاء ولا لهؤلاء، وكان غرضه ظاهراً، وحيلته ناجحة على النجاح،

كان يرمي إلى إضعاف خصومه، فإذا أصبح ذلك أمرًا مقضيًا زحف على الرابح، وقد أتعبه العراك، وبرحت به الحروب، فينتصر عليه ويسحقه..

وكان أول ما فطن له عبد الملك موقف من الإمبراطورية الرومانية، فاعتزم الاتفاق معها مؤقتًا ريثما يتسقى أمره، ويستتب سلطانه، ولو أفضى به ذلك إلى ما يكره، ولذلك نراه لا يرى كبيرًا في مهادنة إمبراطور القسطنطينية حين أغارت جنوده على المصيصة سنة ٧٠ للهجرة، حتى لا ينتهز فرصة انشغال بقتال ابن الزبير فيوغل في بلاد الشام، وقد بعث إليه عبد الملك بالهدايا والأموال، وصالحة على أن يؤدي إليه خمسين ألفًا من الدنانير في كل عام، ولكنه ما لبث أن قطعها عنه حين سحق خصومه وأصبح سيد العربية غير منازع.

### تعاقب الحوادث

والواقع أن عبد الملك لما تسلم عرش الخلافة وجد والده مروان بن الحكم قد جهز جيشًا يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة لمحاربة زقر بن الحرث بقرقيسيا، حتى إذا فرغ منها توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير، فلما كان ابن زياد في الجزيرة بلغه موت مروان، وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه والده، ويحثه على السير نحو العراق، فسار حتى إذا كان بعين الوردية، قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير، ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين، وسموا أنفسهم (التوابين)، وقد وصفنا في السابق شأنهم، وكيف تمكن ابن زياد منهم، وفرق جمعهم، فعاد فلولهم إلى الكوفة وانضموا إلى المختار الذي كان قد أظهر نفسه وكيف تمكن المختار بعد انضمام الشيعة إليه من الوثوب بالكوفة، وإخراج عامل ابن الزبير فيها، وإرسال الجند بقيادة إبراهيم الأشر لقتال ابن زياد، وكيف وفق الاشتراك إلى سحق جنود الشام وقتل ابن زياد، وكيف أرسل ابن الزبير أخاه مصعبًا لمحاربة المختار، وكيف وفق مصعب إلى سحقه وقتله، فعاد العراق إلى سلطان ابن الزبير، وكان الأمر في الشام ومصر لعبد الملك بن مروان.

بقى عبد الملك بن مروان أمر واحد، وهو الاطمئنان إلى سلامة عرش في دمشق قبل أن يفكر تفكيرًا جديدًا في الزحف على العراق..

## فتنة في دمشق

والواقع أن الأمر في دمشق لم يكن قد اطمأن لولد مروان بن الحكم، فقد كان لا يزال بين بني أمية من يرى نفسه أحق بالخلافة منهم، خصوصاً أن ولد مروان ومروان نفسه كانوا بعيدين عن دمشق مدة خلافة معاوية ويزيد وكانوا في الواقع أقرب إلى أهل المدينة منهم إلى أهل دمشق.

كان عبد الملك يحس ذلك، ويعرفه، فنراه لما قرر الخروج إلى قرقيسيا وبها زقر بن الحرث، يأخذ كل من يشك فيه من بني أمية معه، كعمرو ابن سعيد بن العاص وغيره، فلما بلغ الجيش حلب، غادر عمرو بن سعيد الجيش وأسرع إلى دمشق فدخلها، وغلب عليها وعلى خزائنها وجمع الناس فخطبهم ومناهم ووعدهم. وأصبح عبد الملك فلم يرى عمرواً معه، وأخبر خبره، فأسرع نحو دمشق، فقاتله أياماً. يقول المؤرخون بعدها أنه ثناه عن رأيه ومناه بولاية العهد، فاتفقا على ذلك، ورضي عمرو ابن سعيد العاص بخلافة عبد الملك بعد أن قطعوا العهود والمواثيق على أن تكون ولاية العهد له من بعده ولكن عبد الملك كان يريد ولاية العهد لابنه، وقد رأينا كيف أنه كان يطلب من شقيقه عبد العزيز بن مروان أن يتنازل عنها لولده، فكيف يفضي بها إلى غير أهله، وما كانت موثيقه وعهوده ووعداته تكلفها، لقمع الثورة ريثما يوفق إلى القضاء على عمرو بن سعيد وينفرد بالخلافة وحده. وكان ذلك أمراً مقضياً فإن عبد الملك ما عتم بعد أيام أن دعا عمرو ابن سعيد إليه في قصره، وأمر رجاله بضرب عنقه، ففعلوا، وصفا عندئذ الجو له في دمشق، ولم يبق له منازع أو مخالف.

## اتفقا الفيسية واليمينية

ولما انتهى عبد الملك من القضاء على الثورة في دمشق، وصفا له الجو، قرر السير إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، فنصحه بعض بني أمية أن لا يفعل، ودعوه إلى أن يقنع بالشام ومصر، وأن يترك العراق والحجاز لابن الزبير، فأبى ذلك واعترم الذهاب إلى العراق بنفسه، وأن لا ييكل إلى أحد قواده مثل هذا العمل الخطير، الذي كان يتعلق مصير ملكه وخلافته عليه. ويظهر ابن عبد الملك قد سار إلى قرقيسيا أولاً حيث زقر بن الحرث زعيم

القيسية، كما يظهر أنه كان قليل الرغبة في مجابهة هذا الزعيم القيسي بالحرب، فضلاً الاتفاق معه، وقد وفق عبد الملك إلى ذلك فنزل زفر على إمامته وبإيعه، وتصالحا على وضع الدماء والأموال.

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمينية، وانضموا جميعاً تحت لواء عبد الملك، وإن كان العداء بين القبيلتين لم يخدم تماماً، بل ظل كامناً في الصدور، يترقب الفرصة لانفجار والانطلاق..

### مقتل مصعب

ولما انتهى عبد الملك من مصالحة القيسيين سار إلى العرق، فلما بلغ مصعباً مسيره وهو بالبصرة أرسل إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيره، ويقال بل أحضره عنده فقال له: اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك، وكاتبهم فلا تبعدي عنك. فقال له مصعب: أن أهل البصرة أبو أن يسيروا لقتال عبد الملك إلا أن أجعلك على قتال الخوارج، مخافة أنه يقتحم الخوارج بلدهم في غيابهم، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إلي أن لا أسير إليه فاكفني هذا الثغر..

وسار مصعب إلى الكوفة حتى نزل (باخراً) وسار عبد الملك وجنده حتى نزلوا قريباً من معسكر مصعب.

وأخذ عبد الملك يبعث بالكتب إلى زعماء العراق وقواده يستحيلهم إليه ومينهم بالعتاء والنوال، حتى أفسدهم على مصعب، وقد أخفى كل منهم كتاب عبد الملك إلا الاشر فأعطاه لمصعب، وحذره من القواد والزعماء ونصحه بقتلهم فأبى مصعب أن يفعل. وتقدم يحارب عبد الملك بجنده المنتقض عليه، وكان هذا من سوء السياسة وضعف النظر، ولو أخذ برأي الاشر لكان أحكم وأفضل.

ونشبت المعركة على مقربة من "باخرا" كما قدمنا، واستبس مل مصعب، استبسلاً عظيماً، ووعد عبد الملك بالأمان فأبى، ونصحه أهله بالرجوع إلى البصرة فإنهم على الطاعة، فرفض أن يهرب، ودخل إلى سرادقه فتحنط ورمى السرادق، وخرج يقاتل جنود عبد الملك حتى لم يبق حوله إلا سبعة من رجاله، وعبد الملك يمينه بالأمان، ويقول له: "يعز علي أن تقتل فأقبل أمانى، ولك حكمك في المال والعمل، فأبى ولا يزال يقاتلني"

حتى يقتل ويحتز القوم رأسه ويلقونه بين يدي عبد الملك فيخر ساجداً وهو يقول:  
نعاطي الملوك الحق ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم  
والواقع أن مصعب بن الزبير القائد النبيل الشجاع قد أخطأ خطأ عظيمًا في  
إبعاده الملهب القائد العربي الباسل عنه، لأن خطر عبد الملك كان أشد من خطر  
الخوارج، كما أنه خطأ مثل ذلك في إبعاد غير الملهب من قواده البارعين عنه، وإبقاء  
الخونة من القواد بين جنوده، ومن كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لمغادرته وللحاق  
بأوطانهم، وقد نصحه الملهب فلم يقبل نصيحته، ولو فعل، لما وفق عبد الملك التوفيق  
الذي وصفناه، ولطالت الحرب، وكثرت الزخوف، وتبدل الموقف كل التبدل.

ومقتل مصعب بن الزبير صفا الجو لعبد الملك، فدانت له العراق وأكثر  
البلاد الإسلامية، ولم يبق غير الحجاز وفيه عبد الله بن الزبير، فوطد عبد الملك  
النفس على مهاجمته، وبعث له بجيش قوي تحت قيادة الحجاج بن يوسف،  
فما زال يقاتله ويحاربه ويناضله حتى تمكن من تشتيت جنوده وقتله، فدانت  
البلاد الإسلامية كلها لسultan عبد الملك، وقضي على الحزب الزبيري القضاء المبرم.

### لماذا انهار الزبيري

ترجع أسباب انهيار الزبيري إلى عوامل كثيرة، أهمها وأولها أن عبد الله بن  
الزبير نفسه لم يكن الرجل الذي يستطيع أن ينشئ ملكاً ويني سلطناً.  
وأما العوامل الأخرى فكثيرة وأهمها: ما انصرف إليه عبد الله بن الزبير  
من اتخاذ مقر حكومته في الحجاز، والحجاز بعيد عن كل الأمصار العربية بامتداد  
الفتوح، واتساع الزخوف، فأصبح والحالة هذه بعيداً عن مركز العربية، غريباً  
عن مقر الحركات السياسية، لا يستطيع إقرار أمر إلا بعد طول مدى، وامتداد  
شقة، ولا يصل إليه الخبر بعد أشهر من تاريخ وقوعه وحدثه. أضف إلى هذا أن  
الحجاز أصبح بعد امتداد الفتوح، ومغادرة أكثر العناصر السياسية له إلى الشام  
والعراق، مأوى الطبقة الارستقراطية من إشراف قريش والأنصار الذين انصرفوا  
عن النزاع السياسي الذي كان يغمر دمشق، وتضطرب به العراق إلى حياة الدعة  
واللهو والمجون كما يمثل لنا ذلك شعراء الشعراء في هذا العهد، فكان أهله

والحالة هذه أبعد الناس عن الحرب، وحب الزخوف، ومثل هذه الظاهرة لم تكن توطد عرشًا، أو تؤسس ملكًا..

ويظهر أن ابن الزبير كان كثير الرغبة في إعادة الخلافة إلى الحجاز، بعد أن أفضت بها الفتن الأخيرة إلى دمشق، ومثل هذا الرأي يدل على أنه لم يكن يدرك مدى التطور العظيم الذي طرأ على الدولة العربية الجديدة، فنقلها من الحجاز المجدب إلى هذه المشارف الماتعة في دمشق ومصر وعلى ضفاف دجلة والفرات، وكان من الحق أن يكون أبعد نظرًا، وأمضى رأيًا فيدرك هذه الفروق العظيمة، والتطورات الخطيرة، ويعلم أن الحجاز لن يكون عاصمة مملكة ومقر إمبراطورية تمتد أطرافها من مشرق الشمس إلى المغرب..

وأخطأ ابن الزبير غير خطأ واحد بعد انسحاب جند يزيد بن معاوية من جوار مكة، كان عليه أن يتحرك منها إلى العراق والشام، وكان عليه أن يمضي في تأهبه واستعداده على نحو ما كان يفعل عدوه، وكان عليه أن لا يتواكل في نشر دعوته، وبث دعائه، وأن لا يترك أنصاره وشأنهم يحاربون عدوه وحدهم، ويقارعون خصومه وهولاه عنهم، منزوي في أقصى الأرض.

ونحن لا ننكر إلى ذلك أنه كان لظهور الشيعة والخوارج في وجهه أثر كبير في فشله، فقد توزعت قواته، وانشغل فريق عظيم من قواده في محاربتهم ومنازلتهم، كالمهلب بن أبي صفرة الذي كان يقاوم الخوارج في خراسان، بينما عبد الملك بن مروان يحشد الجند، لمحاربة مصعب بن الزبير، وكان من الواجب، وهذه معركة يتوقف عليها مصير ابن الزبير وسلطانه أن يحشد لها كل قواته وأنصاره، وأن لا يتخاذل في ذلك ولا يتخاذى.

وشيئ آخر أيضًا هو ما اشتهر به ابن الزبير من البخل، فقد روى المؤرخون أن مصعب بن الزبير وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق، وذلك بعد مقتل المختار، فقال له:

يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرًا، لتعطيهم من هذا المال..

فقال له: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ... والله لا فعلت .....

ولا نرغب في التعليق على هذا الجواب، إلا أننا لا نستطيع إنكار ما كان لجوابه هذا من أثر سيئ في نفوس العراقيين، ومن أراد توطيد ملكه، وجب عليه أن يبذل في سبيله، وقد تألف محمد الرسول (ص) نفسه العرب في عهده، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله، وهو نبي مرسل، وكان أمره الأمر، فما بالك بمثل عبد الله بن الزبير، لا يحاول تألف الناس حتى ولا بالكلام الحسن واللفظ الرقيق!...

ولا عجب والحالة هذه إذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكتبوا عبد الملك وغدروا بمعصب. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، فتنبأ بأفول نجمه، وقال لمصعب وهو يدعو لأخيه: ”إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً، عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه، فلا يسود رجل فيه تلك الخصال:“.

وبانهزام ابن الزبير فقد الحجاز شأن السياسي، ومركزه السابق، وعاد إلى سالفات أيامه، بلداً مجذباً لا شأن له في التاريخ الإسلامي السياسي في كثير ولا قليل...

## ظهور الحجاج بن يوسف الثقفي

### الذكرى النبوية

وأخيراً يصل بنا المطاف إلى الطائف، بلد الحجاج بن يوسف الثقفي، ومنازل الإشراف من ثقيف في عهد محمد بن عبد الله...  
وللطائف في تاريخ السياسة الإسلامية والغزوات الإسلامية الأولى حديث طريف، وحوار جميل..

فقد أُوذِي فيها محمد كما أُوذِي في مكة، بل لقد أُوذِي فيها في ساعات من يومه بأكثر مما أُوذِي في مكة أياماً وأسابيع. ذلك أن ثقيفاً كانت من قبائل الحجاز العنيدة، وذلك أنها ما دانت بالإسلام إلا بعد زمن طويل وحصار عنيف، ودم كثير.. ويعود الفكر إلى هذه الأيام الأولى من عهد النبي اليتيم، يوم كان يدعو الناس في مكة إلى رسالته، فتثيرهم حلاوتها، وتهزهم رقتها، ويستخفهم ما فيها من روعة وجمال ومثل عليا، ثم يفارقونه وقد عاهدوه، وأقسموا بين يديه، أن ينشروا آياته في الشام حيال قصور الغساسنة، وفي العراق عن كذب من مضارب الأعراب الثائرين على الفرس. وفي ذات عشية من عشيات مكة، خرج النبي محمد "ص" إلى الطائف، ومعه زيد ابن حارثة مولاه، فتوغل في سفوحها وخالط جناتها، ومضى بين خضرتها وعنايبها، حتى تراءت له مياها الرقاقة هدارة في السهول، متفجرة بين الصخور والجبال..

قصد النبي محمد "ص" الطائف، بعد أن قطع أمله فمن مكة ورجال مكة، وقد خيل إليه أنه واجد بين أهلها ما لم يجده بين أهله من عطف وتأيد، فمضى إلى هذه البلدة الجميلة التي تماثل القرى اللبنازية في قيامها على سفوح الجبال، والتي تقوم في أعاليها قصور الإشراف من ثقيف ومناسكهم وبيعتهم تحيط بهم التماثيل والأصنام والدمى، فما وجد عند من دعاهم إلى رسالته عطفًا ولا إنسًا، بل لقد أغلق سكان الطائف في وجهه منازلهم وعادوا في بيوتهم، وزاد بعضهم ندى فأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيب بالحجارة حتى اختضت نعلها بالدماء، فإذا حاول الراحة في بعض الطريق، أخذوا بعضديه وأقاموه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ويهزجون، وزيد بن حارثة يتقيه

بنفسه.. حتى وصل إلى جدار منزل منفرد تحيط به الدوالي، فلما عاذ به أطلق  
لنفسه شجونها فبكى وانبرى يحدث ربه هامساً:

”اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين  
وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني، إلى عدو بعيد يتجهم علي، أم إلى صديق قريب  
ملكته أمري، إن لم تكن غضباناً علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك  
الذي أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل  
بي غضبك أو يحل بي سخطك ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك“.

وكان على جدار البيت الذي آوى إليه شيخان من شيوخ قريش هما عتبة  
وشيبة أبناء ربيعة، فلما رأيا ما لقي واستمعا إلى دعائه رقا له رقة شديدة،  
وتحركت رحمهما فتركا مكانهما على الحائط وخفا إلى روضة يجنيان الثمار ثم  
بعثا إليه مع عداس النصراني غلامهما قطف عنب وجلسا عن كئيب يلحظانه  
ويستمعان إلى همسه، فوضع عداس العنب بين يدي محمد ووقف حياله لا يريد  
فراقه، فوضع النبي ”ص“ يده في القطف وقال:

- بسم الله

فرعش عداس وارتد نظره إلى الرسول فرآه يأكل العنب رابط الجأش فقال له:

”لقد سمعتك تذكر كلاماً ما يقوله أهل هذه البلدة؟

فنظر الرسول إليه وقد استأنس إلى رقة في حديثه فقال له:

”من أي البلاد أنت وما دينك؟

فقال: نصراني من نينوي.

فقال محمد ”ص“: ”من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟

فقال: وما يدريك؟

قال: ذاك أخي وهو نبي مثلي.

فاضطرب عداس اضطراباً شديداً، واكب على رأسه محمد ”ص“ ويديه

وقدميه يقبلهما، وابنا ربيعة بنظرانه ويسمعانه...

هذه ذكرى مؤلمة، ما نستطيع تناسيها، ونحن حين نذكر الطائف نذكر ما

قاساه الرسول محمد "ص" فيها، ونذكر فيما نذكره أيضًا، أنه لما حاول عزوفًا عنها، وأزمع مضيًا إلى مكة، التفت إلى الطائف الغارقة في بهاء الصبح فلم يلعبها ولم يسخط على أولئك الذين رجموه بالحجارة، ولم يستنزل غضب السماء على نبلاتها وأشرفها، بل لقد دعا لقومه الجاهلين، دعاء طيبًا، وبارك الفقراء والمستضعفين وسأل الله إصلاحهم وإصلاح ذراريهم من بعدهم!

### الحجاج بن يوسف

ولقد ولد الحجاج بن يوسف في الطائف، منازل قبيلة ثقيف، قبيلة الجاه والمتعة والزعامة في الجاهلية، ويقال أنه ولد في عهد معاوية، وفي سنة ٤١ للهجرة على الأرجح، وكانت فقيرة معدمة، وكان ضعيف الجسم في طفولته، وله شقيق أكبر منه يدعى محمد، وشقيقة تدعى زينب، أما حياته الأولى فمجهولة تمامًا لا يذكر لنا التاريخ عنها شيئًا، ولكننا نعلم أن والده كان معلمًا، وأنه سوف تكلف هذه الصناعة أيضًا، فكان يعلم الأطفال كتابة القرآن وقراءته وحفظه.

ولكنه لم يطبق هذه الحياة الوادعة الساكنة طويلاً، وأخذ يحس في نفسه رغبة عظيمة في مغادرة قريته إلى دمشق حيث الترف والعز، وحيث السياسة والسيف، لقد كان يحس في نفسه أنه لم يخلق لهذا النوع من العمل، تعليم الأطفال في قرية نائية بعيدة، وكان يعلم أن مستقبله سيكون مظلمًا حقًا إذا ظل في قريته هذه، وما كادت تضرب هذه الفكرة في نفسه، حتى تغلبت على كل حواسه، وإذا هو يقرر مغادرة قريته كما فعل كثيرون من أمثاله، ومن المؤكد أن تلامذته لم يأسفوا لفراقه فقد كانت عصاه (مقرعة) شديدة قاسية على لحمهم البيضة الطرية..

ومضي الأيام فلا نعلم من أمره بعد مغادرته الطائف وأطفالها شيئًا، ولكن الأغاني يذكر لنا فيما يذكره من أخباره أنه حضر مذبحة (الحررة) في المدينة سنة ٦٣ للهجرة - آب ٦٨٣ - وأنه هرب منها تاركًا والده وحده، وأنه راح بعد ذلك يعتذر عن هربه.

وفي سنة ٦٥ للهجرة ترى الحجاج مع أبيه في الجيش الذي أرسله مروان ابن الحكم لمهاجمة ابن الزبير في مكة، وقد عرف ما أصاب هذا الجيش في معركة

(الريدة) من فشل مريع. ولكن الحجاج ووالده تمكنوا من الهرب والنجاة أيضًا، بعد أن رمى بالعلم الذي كان يحملها في يده.. يقول بعض المؤرخين أن يوسف والد الحجاج هلك في هذه المعركة، ولكن ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ينكر ذلك، ويؤيده في ذلك الطبري وابن الأثير، ويظهر من أقوال هؤلاء المؤرخين أن عبد الملك بن مروان عهد إلى يوسف والد الحجاج بعد ذلك بإحدى الولايات، كما عهد إلى ابنه الحجاج بالمدينة، وأن الحجاج وهو عامل المدينة أبن والده لما علم بموته. وكذلك أن (فتوحات) الحجاج الأولى العسكرية لم تكن موفقة، فما نراه وفق في بعث، ولا ضحى في معركة، وكذلك نراه مثل ذلك في إدارته الأولى، فقد بعث به عبد الملك حاكمًا على (تباله) فما عثم أن أعرض عنها لما رآه من ضعف خطرهما، وخسيس أهميتها، والظاهر أنه كان يرى نفسه أكثر استحقاقًا، وأعظم شأنًا، ولعله ذهب بعدها إلى روح بن زنباع الذي كان من أعوان عبد الملك المقربين، وانضم إلى شرطته. ويقول ابن قتيبة أن الحجاج عين بعد ذلك قائدًا لشرطة أبان بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم فلسطين في هذا العهد.

### ظهور الحجاج

وفي سنة ٧٠ للهجرة غادر عبد الملك بن مروان الشام إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، فغلب عمرو بن سعيد في غيابه على دمشق فرجع عبد الملك إليها، وكان ما كان من مقتل عمرو بن سعيد كما ذكرنا، فاطمأن عبد الملك عندئذ إلى استتباب ملكه، وانتظام شأنه، أخذ طريق العراق كرة ثانية، وأوجس عبد الملك وهو في طريقه إلى العراق شرًا لما رأى انحلال عسكره، وإن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فشكا ذلك إلى روح بن زنباع فقال له:

- إن في شرطتي رجالًا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف.

فقال عبد الملك: فأنا أقلده ذلك.

فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف عليهم يومًا، وقد أرحل الناس على الطعام يأكلون فقال لهم:

-ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟

فقالوا له: انزل يا ابن اللخناء فكل معنا.

فقال لهم: هيهات ذهب ذلك، ثم أمر بهم، ف جلدوا بالسياط، وطوفهم بالعسكر، وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار، فدخل روح علي عبد الملك باكياً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلماني وأحرق فساطيطي.

قال: علي به، فلما دخل عليه قال:

- ما حملك على ما فعلت؟

قال: أنا ما فعلت.

قال: ومن فعل؟

قال: أنت فعلت إنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين، وعوض الغلام غلامين فلا يكسرنى فيما قدمني له.

فاطرق عبد الملك هنيهة ثم قال:

- سأفعل ذلك.

ومن ذلك الوقت، أحس عبد الملك بقوة الحجاج وبأسه وأخلاقه، وأنه يستطيع الاعتماد عليه في كل أمره..

وانتهت المعركة بين جيش عبد الملك ومصعب وبعد أن عين عبد الملك شقيقه بشر بن مروان على الكوفة، وخالد بن عبد الله على البصرة عاد إلى دمشق وهو يفكر في التهيو لابن الزبير وحربه بعد أن صفا له جو الولايات العربية كلها، ولم يبق خارجاً عن سلطته إلا الحجاز...

## الحجاج بن يوسف يحاصر الكعبة

### الحجاج يقود حملة الحجاز

يقول المؤرخون أن السبب في إرسال عبد الملك بن مروان الحجاج لقتال ابن الزبير، دون غيره من الناس، مع ما رأيناه من رغبة عبد الملك أن يسير قتال خصمه بنفسه وعلى رأس جنوده، أن الحجاج جاء يومًا وهو يقول:

- رأيت في المنام أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه، وولني قتله فبعثه عبد الملك على رأس ألفين من جنود الشام وذلك في سنة ٧٢ للهجرة، وكان للحجاج من العمر في ذلك الوقت ٣١ سنة، فوصل في شهر شعبان للطائف، ولم يتقدم رأسًا إلى مكة.

وسبب ذلك في رغبة الحجاج في أن يكون له ولجنده مركز منيع يأوى إليه في بلد أكثر أهله خصوم له، وما لديه من الجند ليس يفوق جند عدوه، وكانت الطائف لقيامها على جبل غزوان بلدًا منبغًا من الوجهة العسكرية يستطيع الجند المهاجم أن يعتمد على مناعتها الطبيعية فيما إذا لم يوفق في زحفه، وحاول عدوه للحاق به، وقد يكون من الأسباب التي أهابت بالحجاج بالنزول إلى الطائف أول الأمر، إنها كانت بلده، وكان يهيمه وهو في مهد شبابه أن يدخلها على رأس جند الشام، فيعزز بذلك مركزه ومركز عائلته، ويظهر بين أترابه بمظهر العز والمنعة والمجد..

ويظهر له أن عبد الملك كان كثير الرغبة في أن لا يثيرها مجزرة أو مذبحة في مكة مخافة أن يلزم به ما ألم ببيزيد بن معاوية بعد مذبحة الحرة من غضب المسلمين عليه ونقمتهم على خلافته، فأوصى الحجاج بأن لا يحارب ابن الزبير في مكة، وبعث له بالأمان لابن الزبير ومن يشايعه أن أطاعوا، وهذا سبب ما نراه من وقوف الحجاج موقف المترث أول الأمر، قدم إلى الطائف ولم يعرض للمدينة، وكان يبعث الخيل إلى عرفة، ويبعث ابن الزبير خيله أيضًا فيقتتلون ساعة من نهار، ثم تخزم خيل ابن الزبير وتعود خيل الحجاج ظافرة غائمة.

وعندئذ كتب الحجاج إلى عبد الملك يعلمه بضعف ابن الزبير ويستمدده ويستأذنه في دخول الحرم، وحصر ابن الزبير، فكتب عبد الملك إلى طارق أحد قواده يأمره باللاحق بالحجاج، فقدم المدينة في ذي القعدة من سنة ٧٢ للهجرة، وأخرج عامل ابن الزبير عنها، وقدم على الحجاج وهو بمكة في أواخر السنة ومعه خمسة آلاف مقاتل.

ولما وصلت النجدات إلى الحجاج جعل معسكره في جبل أبي قيس، وأخذ يقاتل ابن الزبير في الشهر الحرام والبلد الحرام، ونصب المنجنيق على الجبل وأخذ يرمي به الكعبة، ثم توقف عن ذلك أيامًا لنقمة الحجاج عليه واستنكارهم لعمله، ولكنه ما كاد ينتهي موسم الحج حتى عاد إلى شأنه، ولم يزل القتال دائرًا والحصار واقعًا، حتى نقصت الأطعمة عند ابن الزبير وارتفعت الأسعار، وأصاب الناس جهد عظيم، فأخذوا يتفرقون عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج، وكان ممن فارقه أبناء حمزة وحبیب.

### بين ابن الزبير وأمه

ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئًا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال:

”يا أماه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعوا فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبته يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا، القتل أحسن.

فقال: يا أماه أخاف أن تقتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني.

قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبل رأسها وقال:

”هذا أبي والذي خرجت به دائبًا إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدنتي بصيرة، فانظري يا أماه فيني مقتول يومي هذا فلا يشتد

حزنك وسلمي الأمر إلى الله، فإن ابنك لم يتعهد إيثار منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيئاً أثر عندي من رضاء ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي، ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسأو عني“.

فقالت أمه: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك.  
فقال: جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي.

قالت: لا أدعه لك أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتل على حق.  
ثم قالت: اللهم ارحم هول ذاك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظماً في هواجز مكة والمدينة؛ وبره بأبيه وبني، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

فتناول يديها ليقبلها، فقالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودعك.  
فدنا منها فعانقها وقبلها، فوقع يدها على الدرع، فقالت:  
- ما هذا صنيع من يريد ما تريد.

فقال: ما لبسته إلا لأشد متتك.

قالت: فإنه لا يشد متني.

فنزعتها ثم خرج يقاتل القوم حتى قتل.. في جمادي الآخرة من سنة ٧٣ للهجرة...  
ومقتل ابن الزبير، صفا الجو لعبد الله بن مروان في جميع الأمصار الإسلامية، وأجمعت عليه الكلمة، ولم يبق له من منازع أو مخالف، وأما ابن الزبير فقد دامت خلافته تسع سنين لأنه بويع له سنة ١٤ للهجرة.

## الحجاج في الحجاز والعراق

### في الحجاز

أراد عبد الملك بن مروان بعد أن صفا له الجو في الأمصار الإسلامية أن يكافئ القائدين اللذين وفقًا في محاربة عبد الله بن الزبير، فعين الحجاج لمكة، وقلد طارق بن عمرو المدينة، ثم زاد في واجبات الحجاج فضم إليه اليمن واليمنية، وما لبث أن ضم إليه المدينة أيضًا بعد أن عزل طارقًا عنها.

وليس بين أيدينا عن أعمال الحجاج في مكة ثم في المدينة ما يستلفت النظر سوى ما صرفه همه له من الشدة والقسوة على كل من كان يظن فيهم الكره لبني أمية، والتنكر لسلطانهم، وقد قسا في ذلك قسوة أنكرها الناس خصوصًا في المدينة، فقد أساء إلى أهلها كثيرًا، واستخف بهم وقال: "أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان"، وختم على أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص، استخفافًا بهم، كما يفعل بأهل الذمة، منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، فأغضب هذا أهل المدينة ومكة وشكا بعض كبارهم أمرهم إلى عبد الملك بن مروان..

وهنا تختلف روايات المؤرخين في الأسباب التي أفضت بعبد الملك إلى نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق، فمن يقول منهم بهذه الأسباب العاطفية، ورغبة عبد الملك في رفع الشدة عن سكان الحجاز، لا يجد من يؤيده من المؤرخين المعاصرين، لأننا في الواقع لا نرى في هذه الأسباب مبررًا للنقل، وعبد الملك إنما أوفد الحجاج إلى الحجاز لقمع الفتن، وتثبيت الأمن، وقد وفق الحجاج في ذلك إلى حد بعيد، فلا سبيل والحالة هذه إلى نقله، وهو إنما يقرر رغبات عبد الملك وينفذها، ولكن السبب الأساسي في هو موت بشر بن مروان في الكوفة سنة ٧٥ للهجرة وهو شقيق عبد الملك فوجد عبد الملك، الحاجة ماسة إلى من يخلفه خصوصًا والعراق بحاجة إلى حاكم قوي شديد والخوارج لا تزال تهدده، فلم ير الخليفة غير الحجاج لهذا المنصب الخطير، فولاه إياه وأمره بالسير له، والتشمير في عمله الجديد..

هذا هو الرأي الحق في الأسباب التي دعت إلى نقل الحجاج إلى العراق، ولولا وفاة بشر بن مروان لظل الحجاج في الحجاز مدة أخرى من الزمن.. ولعل أهم عمل قام به الحجاج في الحجاز هو تعمير الكعبة التي دمر بعض جدرانها أثناء الحصار بما كان يلقيه عليها من الحجارة الكبيرة، وإذا استثنينا هذا فلا نرى للحجاج عملاً عمرانياً مدة ولايته على الحجاز التي طالت إلى ثلاث سنوات بما فيها الأيام التي قضاها في الطائف قبل مهاجمته لابن الزبير في مكة.

### عمارة الكعبة

كانت الكعبة في عهد ابن الزبير على نحو ما كانت عليه في عهد الرسول محمد بن عبد الله "ص"، فلما آل الأمر إلى يزيد بن معاوية كان عبد الله بن الزبير ما يزال منتقلاً على إمارة الأمويين تأثراً بهم بمكة، فجرد عليه يزيد جيشاً لإخضاعه. وكان عليه الحصين بن نمير، فسار إليه وضيّق عليه الحصار بمكة، ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فجأوا منه إلى الحرام وبنوا حول الكعبة خصاصاً من القصب يحتمون بها من حجارة المنجنيق، الذي نصبه ابن نمير، على جبلي مكة أي قبيس وقيقعان، ولم تمنع هذه الخصاص اللاجئين إليها من شر الحجارة، وكان ابن نمير قد أمر أصحابه أن يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة آلاف حجر، وكانوا يرمون ويرتجزون، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزقت كسوتها وبدت أحجارها، وأصاب الذين قيمون بالخصاص والخيام حول الكعبة الفرع، حتى أن أحدهم ليوقد ناراً في خيمة قائمة بين ركن الحجر الأسود والركن اليماني؛ إذ طارت منه شارة أحرقت الخيام وتعلقت باستاد البيت، ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدماماً من حجر ومدماماً من خشب الساج فقد احترق الخشب ووهن البناء كله، حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافياً لتأثر حجارتها. ولقد فزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعاً، وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس، فيكون مرآها محرصاً لهم على أهل الشام، وظل الأمر كذلك، وظل الحصين بن نمير محاصر البلد الحرام حتى لبلغه نعي يزيد بن معاوية، فرجع إلى الشام تاركاً لكعبة واهية توشك أن تنقض.

وتحدث عندئذ ابن الزبير إلى أهل مكة، ما يصنع بالبيت، أيسلح ما وهي

منه، أم ينقضه ويعيد بناءه، وكان عبد الله بن عباس على رأس المعارضين للهدم وإعادة البناء، وقال موجهاً كلامه لابن الزبير:

- دعها على ما أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ثم بعد ذلك آخر، فلا تزال أبداً تهدم وتبني فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم، ولا أحب ذلك ولكن ارقعها.  
فأجابه ابن الزبير: والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه، وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله، حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته..

وأقام أياماً يشاور ويستشير، ثم أجمع على هدم الكعبة، وهدمها وأعاد بناءها، ولما كانت خالته عائشة أم المؤمنين تذكر أن رسول الله قال لها:  
- يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم.“  
لذلك زاد ابن الزبير في مساحة الكعبة فأدخل فيها حجر إسماعيل، بعد أن كشف عن أساسها وجعل لها بابين وألصقها بالأرض.

ولما هدم ابن الزبير الكعبة وشرع في إعادة بنائها بعث إليه عبد الله بن عباس يقول:  
- لا تدع الناس بغير قبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها.  
ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس.

ولما تم بناء الكعبة اعتمر ابن الزبير محرماً من التنعيم، واعتمر الناس معه ونحروا وأقاموا يطعمون ويطعمون شكرًا لله على تيسير بناء بيته الحرام، وكان ذلك في السنة الخامسة والستين من الهجرة.

وظلت الكعبة كما بناها ابن الزبير عشر سنوات، فلما كان عهد عبد الملك ابن مروان، وحاصر الحجاج ابن الزبير وقتله، كتب إلى عبد الله يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر، ويستأذنه في رد ذلك إلى ما كان عليه في الجاهلية، وأذن عبد الملك، وغير الحجاج الجدار الذي من جهة الحجر وسد الباب الغربي

ورفع البناء ورفع باب الكعبة على ما كانت في الجاهلية، ويذكرون أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج ولعنه وقال: "وددنا أنا تركنا ابن الزبير وما تولى من ذلك." وإذا نظرنا إلى الحالة السياسية في الحجاز لما غادره الحجاج إلى العراق نرى أن المعارضة فيه قد خنقت حقًا، فابناه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سكتوا إلى حظهم وانصرفوا إلى العناية بالثقافة المعاصرة في عهدهم فبرعوا فيها، وعائلة ابن الزبير لم تعد لها قائمة، ولا استقام لها عز ولا سلطان في مقبلات الأيام..

### الوضع في العراق

كان العراق لما عين عبد الملك الحجاج بن يوسف عليه في حالة دقيقة من الاضطراب وعدم الاستقرار، ويظهر أن بشر بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم الكوفة لم يكن بالرجل الإداري الحازم، بحيث يستطيع جمع الشمل، وتوثيق الأطراف، وتهئية النفوس، والقضاء على الخوارج الذين كانوا لا يبرحون يهددون العراق في معاقلمهم في فارس وخراسان، ويتبسطون في الثغور التي حولهم حتى حدود الهند، ولا أدل على ضيق صدره، وضعف نفسه، من رغبته في الاستغناء عن القائد اليمنى البارع المهلب بن أبي صفرة، وكان عبد الملك قد أفضى إليه برغبته في أن يكون المهلب أمير الجيش لمحاربة الخوارج، وكان هو يريد أن يكل إلى هذا الأمر شخصاً آخر دون المهلب مقدره وجرأة وبراعة عسكرية، ولو أنه كان من الفطنة والذكاء بالقدر الذي يجب أن يكون معه الحاكم الحكيم، ولما ترك لعواطفه مجالاً للتغلب على عقله، ولكنه لما رأى تشدد الخليفة في أمر المهلب أنفذه في جيش ضعيف، وأنفذ عبد الرحمن بن مخنف في أحسن جند الكوفة وأمره بالاستقلال في رأيه، وعدم الأخذ برأي المهلب في حروبه وزحوفه.

ولكن أمر بشر لم يطل، فما كاد الجيشان يذهبان لقتال الخوارج حتى جاءهم نعيه، فنفر كثير من الجند ولحقوا بأهلهم، فلما رأى ذلك المهلب غضب وأرسل إلى عبد الملك كتابًا يقول فيه:

"إما أن تبعث لي رجالاً، أو فافتح طريق البصرة للدول."

وعندئذ اعتزم عبد الملك أن يرسل إلى العراق رجلاً شديداً قوياً فوق

اختياره على الحجاج فبعثه إليها.

## الحجاج يهدد أهل العراق ويغلظ لهم القول

### في طريق الكوفة

سار الحجاج من المدينة إلى الكوفة في شهر شعبان من سنة ٧٥ للهجرة، ومعه اثنا عشر راكبًا على النجائب، فدخلها في رمضان وقد انتشر النهار فبدأ بالمسجد فصعد المنبر، وهو مثلثم بعمامة خز حمراء.

ونظر الناس إلى هذا الشاب المثلثم - وكان الحجاج لا يزيد عمره عن ٣٣ سنة - وجماعته، فاستخفوا بهم، وحسبوه من الخوارج، فهموا بهم، ولكنهم لما رأوا هدوءهم، وعدم اهتمامهم تريثوا في أمرهم، ليروا ما يكون منهم، وقال الحجاج لأحد أصحابه: - علي بالناس!

فأخذ رجاله يدعون أهل الكوفة للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، والحجاج ساكت قد أطال السكوت، والناس لا يزالون في شك من أمره، حتى لقد فكر أحدهم في حصبه، فلما عجز المسجد بالناس، وقف الحجاج وكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

”أما والله أني لا أحمل الشر محمله، وأخذه بفعله، وأجزيه بمثله، وأنني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وأنني لصاحبها وكأنني انظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميرًا..“

”إن أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودًا، اصلبها مكسرًا، فوجهني إليكم ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسننتم سنن ألغى، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتناقدوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا، أني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وأنني أقسم بالله لا أجد رجلًا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.“

فقرأ غلامه ”بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلي من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم.. فلم يقل أحد من الحضور شيئاً..

فقال الحجاج اكفف يا غلام..

ثم أقبل على الناس فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام، أما والله لأدبكم غير هذا الأدب.

ثم قال للقارئ: اقرأ، فلما قرأ السلام عليكم قالوا بأجمعهم: سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإذا انتهى الحجاج من خطبته، دخل منزله ولم يزد على ذلك، وتفرق الناس وقد أذهلهم تهديده، وأخافتهم جرأته، فقد سمعوا منه شيئاً جديداً لا عهد لهم به، ولا مثيل له في تاريخ ولاة الكوفة إلا ما كانوا يسمعون عن زياد بن أبيه وشدته، ولكن زياداً، ما طاول الحجاج في مثل هذا التهديد والوعيد في كثير ولا قليل.

وينظر الحجاج في أمره فإذا هو أمام أمر داهم، إرسال الناس إلى المهلب مخافة أن يدهمه من الخوارج ما لا قبل له به، فيدعو العرفاء إليه ويأمرهم بإلحاق الناس بالمهلب، وأن يأتوه بالبراءة بموافاتهم، وأمر بفتح الجسر فلا تغلق أبوابه ليلاً ولا نهاراً.

ويصف المبرد اجتماع الحجاج إلى وجود أهل الكوفة بعد الخطبة، وسؤاله إياهم: ما كانت الولاة تفعل بالعصاة؟

فقالوا: كانت تضرب وتحبس.

فقال الحجاج: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، أن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون، ولو ساغت المعصية لأهلها ما قوتل عدو، ولا جبي فئ، ولا عز دين.

ثم جلس لتوجيه الناس إلى المهلب وابن مخنف، وقال للناس:

- قد أجلتكم ثلاثاً، واقسم بالله لا يتخلف أحد من أصحاب ابن مخنف بعدها، ولا من أهل الثور إلا قتلته. ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه:

- إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذوا سيوفكما عصياً.. افجاء عمير بن ضايي.

البرجمي بابنه وقال:

- أصلح الله الأمير، إن هذا أنفع لكم مني، وأنا في هذا البعث ولكنني كبير

عليل، وابني هذا أنسب مني.

فقال الحجاج: أن عذرك لواضح وأن ضعفك لبين، ولكنني أكره أن يجتري بك

الناس علي، وبعد فانت ابن ضايي صاحب عثمان، ثم أمر به فقتل.

فاحتمل الناس، وأن أحدهم ليتتبع بزاده وسلاحه، وازدحم الناس على

الجسر، وخرج العرفاء إلى معسكر المهلب فأخذوا منه كتباً بوصول الناس إليه.

### الحجاج في البصرة يتوعد بحمام الدماء

وفي أواخر هذه السنة ٧٥ للهجرة خرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة، فخطب

أهلها وتوعدهم بمثل ما توعد به أهل الكوفة، وتوعد من رآه منهم بعد ثلاثة، ولم

يلحق بالمهلب، فجاءه رجل يعتذر بمرضه فضرب عنقه، فلم يبق بالبصرة أحد من

عسكر المهلب إلا لحق به، وتتابع الناس مزدحمين إليه، حتى كثر جمعه.

وخرج الحجاج إلى (رستقباز) وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً، وإنما

أراد أن يشد أزر المهلب وأصحابه بمكانه.

ثم خطب يوماً فقال أن الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير إنما هي زيادة

مخسر باطل ملحد فاسق، ولسنا نجيها.

وكان مصعب بن الزبير قد زاد الناس في العطاء مائة مائة، فقال عبد الله بن الجارود:

- إنها ليست بزيادة ابن الزبير، إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد

أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر.

فقال له الحجاج: ما أنت والكلام لتحسنن حمل رأسك وإلا لأسلبنك إياه.

فقال: ولم؟ فإني لك لناصح وأن هذا القول من ورائي.

فسكت الحجاج عن الزيادة شهراً، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول.

وأخذ بعض رجالات العراق يؤيدون ابن الجارود ويباعونه سرّاً على إخراج

الحجاج من العراق، ثم الكتابة إلى عبد الملك ليولي أمورهم غيره، وأظهر ابن الجارود

وجماعته أمرهم في ربيع الآخر من سنة ٧٦ للهجرة، وكان الحجاج قد علم بخبرهم فاستعد لهم، ولكنه كان قليل الرجال ضعيف الأعوان فلم يكن بطوقه والحالة هذه أن يحارب القوم وقد ثاروا جميعاً ضده، وكان الثائرون في الوقت نفسه لا يريدون قتله، وإنما إخراجه من العراق، والخلص من ظلمه وشدته، ولكن الحجاج صمد لهم وأبي مغادرة العراق، وراح يتحايل ليجمع الناس حوله، حتى تمكن من ضم بعض العراقيين إليه فحارب بهم ابن الجارود وجماعتهم فغلبهم، وقبض على رجال الثورة فقطع رؤوسهم، وأرسل إلى المهلب لتكون نذيراً إلى كل من تحدته نفسه بالثورة والعصيان.

### ثورة عراقية ضد الحجاج

والواقع أن ثورة ابن الجارود كانت ثورة من رجالات العراق وزعمائها على الحجاج، فقد أساء إليهم وأمتنهم، وأغرق في إيدائهم واحتقارهم، ثم راح يحاول تخفيض مخصصاتهم من بيت المال، فثاروا عليه، وحاولوا إخراجه من العراق دون ما حرب ولا قتال، لأنهم في الواقع لم يكونوا يريدون غير الخلاص منه، لأن الثورة على الخليفة القائم، وكانوا يظنون أنهم إذا تمكنوا من إخراج الحجاج عنهم، فإن أمير المؤمنين لابد وأن يبعث لهم غيره. ويبدلهم خيراً منه. ولكن الثائرين لم يكونوا أهل خبرة كما يظهر في اغتنام الفرص السانحة فإن حرصهم على سلامة الحجاج، وإخراجه من العراق فحسب، جعلهم يسرعون في مهاجمته، ولو فعلوا لكان للحجاج في العراق غير هذا التاريخ الذي ترويه عنه اليوم.

## المهلب بن أبي صفرة والخوارج

### شان الخوارج

عرضنا لشأن الخوارج، فتحدثنا عن أمرهم مع ابن الزبير، وكيف أخذوا بعد مغادرتهم يهددون العراق، ويتبسطون في سواده، وكيف كلف أهل البصرة المهلب بن أبي صفرة حربهم، وكيف قبل ذلك على أن تكون له ولاية ما غلب عليه، وأن يعطي من بيت المال ما يقوى به هو ومن معه على محاربتهم، وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم وذوي الشرف من أحبه، فأجابوه إلى ما طلب...

ودارت رحى القتال بين الخوارج وبين أهل البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة، فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم، فأنحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان، ولم يزل المهلب يطاردهم حتى تولى مصعب بن الزبير العراق فولاه الجزيرة وولي على حرب الخوارج عمر بن عبيد بن معمر، فحاربهم مدة حتى أجلاهم إلى أصفهان حيث جمع الخوارج شملهم واتوا سابور فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم، غير أنه لم يكن في حزم المهلب ودهائه، فعاد أمر الخوارج يظهر ويفشو، وعاثوا في الأرض فساداً وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج، فلم ير أهل العراق بداً من أن يطلبوا إلى مصعب إرجاع المهلب لقتالهم فعاد المهلب إليه وتلقى بهم وعلى رأسهم قطري بن الفجادة ودار القتال بينه وبينهم ثمانية أشهر صمد لهم المهلب صموداً قوياً شديداً. ويقتل مصعب بن الزبير، ويصفو الجو لعبد الملك بن مروان، فيولي خالد بن عبد الله بن أسيد بلاد العراق، فيصرف هذا المهلب عن حرب الخوارج، ويرسل أخاه لحربهم، فيهزمه الخوارج هزيمة منكرة، فيغضب عبد الملك، ويكتب إلى عامله يؤنبه ويقبح رأيه في إبعاد المهلب ويأمره بإسناد حربهم إليه، فيعود المهلب إلى حرب الخوارج سنة ٧٢ للهجرة والحرب سجال بينه وبينهم.

ويبعث عبد الملك بالحجاج إلى العراق ليعمل والمهلب سوية للقضاء على الخوارج، فيأتي الحجاج إلى العراق كما قدمنا، ويأخذ الناس بالشدّة، ويبعثهم إلى مساندة المهلب في حروبه وزحوفه، وقد عرفنا شأن الحجاج فمن هو المهلب؟

## المهلب بن أبي صفرة

كان أبو صفرة والد المهلب من الأعراب الذين نزلوا البصرة في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وولد له المهلب بها فرباه تربية عالية، فظهر بين الناس سيداً نبلاً وفارساً مغواراً وشجاعاً مقداماً..

وظهر المهلب بين الناس كرجل حرب وكفاح، يحسن الإدارة، ويحسن الزخوف والهجوم، حتى لقد أعجز الخوارج وضايقهم، ولم يمكنهم من نفسه وجنده، وكان في وقائعه معهم يحكم تدبير حركة الجيوش، ويخندق عليهم، ويضع المسالح ويذكي العيون، ويقيم الأحراس، ولا ينزل بلدًا ولا يعسكر في مكان إلا وعسكره على تربيتهم ومصافهم، وقواه على راياتهم، والموكلون بالحرب على أبواب الخنادق وأفواه الطرق. وكان الخوارج إذا أرادوا أن يبيتوه أو يهاجموه، وجدوا أمرًا محكمًا فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه، كادهم بالحيل، ومزق جموعهم بالحروب، وكان يساعده في تلك الوقائع بنوه الأبطال وكلهم على غراره بأسًا وقوة وجراً، ولبت يقاتل الخوارج هو وبنوه وجنوده زهاء اثنتي عشرة سنة، حتى شنت شملهم، وكان الحجاج أثناء ذلك يرسل إليه الرسل أثر الرسل ليستحثوه بالقتال، ويبعث إليه بالكتب تلو الكتب يثير بها حميته، ويهيجه بقوارص الكلم، فما كان يزيد على أن يفرق مع بنيه في الجنود ليشاهدوا قتالهم مع الخوارج، فكان بعض الرسل يقتلون وبعضهم يهربون من هول الحرب، وكانت أجوبته على كتب الحجاج أن سل رسلك يخبروك كيف نقاتل الخوارج ويقاتلوننا، وكان الرسل يرجعون إلى الحجاج ويقولون له: رأينا قومًا لا يعين عليهم إلا الله. وأغلظ الحجاج القول للمهلب ذات مرة، في كتاب كتبه يأمره في آخره أن يلقي الخوارج يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرع إليه صدر الرمح، فأغلظ له المهلب في الجواب، وكتب في آخره. ”وزعمت أي إن لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعت إلي صدر الرمح. فلو فعلت لقلبت إليك ظهر المجن والسلام.“

وفي بعض المرات وجه إليه الجراح بن عبد الله يستبطنه في مناجزة القوم، وكتب إليه: ”أما بعد فإنك جبيت الخراج بالعلل، وتحصنت بالخنادق، وطاولت القوم، وأنت أعز ناصًا، وأكثر عددًا، ولا أظن فيك مع هذا، معصية ولا جنبًا، ولكنك اتخذت أكلاً وكان

بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم. فناجزهم وإلا أنكرتني والسلام“ فقال المهلب للجراح: ”يا أبا عقبة، والله ما تركت حيلة إلا احتلتها، ولا مكيدة إلا عملتها، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره“ ثم ناهض الخوارج يغاديهم القتال إلى الرواح، أما عين الرسول، فينصرف أصحابه وبهم قروح ومنهم قتلى، فقال للرسول: كيف رأيت؟ قال: قد أعذرت. وكتب المهلب إلى الحجاج: أتاني كتابك تستبطنني في لقاء القوم، على أنك لا تظن بي معصية ولا جبنًا. وعاتبني معاتبة الجبان، وأوعدتني وعيد العاصي، فاسأل الجراح والسلام. فقال الحجاج للجراح: كيف رأيت أخاك؟ قال: والله ما رأيت أيها الأمير، مثله قط. ولا ظننت أن أحدًا يبقى على مثل ما هو عليه: شهدت أصحابه أيامًا ثلاثة، يغدون إلى الحرب، ثم ينصرفون عنها، يتطاعنون بالرمح، ويتضاربون بالسيوف، ويتخابطون بالعمد، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئًا.

فقال الحجاج: لشد ما مدحته، أيا عقبة!

قال: الحق أولى.

وكان الخوارج يسمون المهلب الساحر: لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبق إلى نقض تديبرهم، وكانوا يسمونه الأعور لأنه أصيب بعينه في غزوة سمرقند مع سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافة معاوية سنة ٥٦. وكانوا يسمونه الكذاب: لأنه كان فقيهاً، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: كل كذب يكتب كذبًا، إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين الرجلين، وكذب الرجل لامرأته يعدها، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد. وقوله عليه الصلاة والسلام: إنما أنت رجل فخذل عنا: فإمّا الحرب خدعة، وغير ذلك. فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين، ويضعف من أمر الخوارج. وليس المراد وضع الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل المراد أحاديث الحرب لتخذيل الأعداء. وهو مخترع الركب الحديدية، وكانت الركب تصنع من الخشب، فكان الرجل يعتمد على الركاب منها في الضرب والطعن فينقطع فيبقى بلا معتمد، فأمر المهلب فضربت من الحديد.

ولما انتهى المهلب من أمر الخوارج وجه إلى الحجاج كعب ابن معدات الأشقري ليبشره بالانتصار عليهم وتمزيق شملهم. فأقبل عليه الحجاج وقال له، في حديث طويل: أخبرني عن بني المهلب. قال: "المغيرة" فارسهم، وكفى "ببببب" فارسًا شجاعًا، وجوادهم "قبببب" ولا يستحي الشجاع أن يفر من "مدرك"، و "عبد الملك" ناقع، و "حببب" موت زعاف، و "محمد" لبث غاب، وكفكف "بالمفضل" نجدة.

ولما جمع عبد الملك بن مروان إلى الحجاج خراسان وسجستان والعراق، استعمل الحجاج المهلب على خراسان، فلم يزل واليًا عليها حتى أدرسته الوفاة سنة ٨٢. ثم استقدم الحجاج المهلب وأجلسه بجانبه، وأظهر إكرامه وبره، وقال: يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب. قال ذلك لأنه لولا المهلب لاستولى الخوارج على العراق، ولولاه لسقطت البصرة في أيديهم، ولذلك تسمى بصرة المهلب. وكان للمهلب كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، فمن ذلك قوله: "الحياة خير من الموت. والثناء الحسن خير من الحياة. ولو أعطيت ما لم يعط أحد لأحببت أنتكون لي أذن أسمع ما يقال بها ما يقال في غداً إذا مت...".

## المهلب والخوارج

ولقد عرضنا إلى أول حروب المهلب مع الخوارج ويوم خرج إلى الأزارقة بجيشه وكانوا قد انتهوا إلى الجسر الأصغر وعليهم عبيد الله ابن الماحوز، فحصلت بين الفريقين معارك متعددة تمكن المهلب في آخرها من دفعهم نحو الأهواز، وقد ضاق صدر الخوارج ذرعاً بالمهلب إذ كان لا يمكنهم نفسه ولا جيشه كما قدمنا، فهو أبداً على استعداد لملاقاتهم ومحاربتهم، وقد حدث أن أرادوا مهاجمته ليلاً في إحدى المعارك التي حدثت في سنة ٦٥ للهجرة، فأرسلوا إلى جناحه الأيسر عبيدة بن هلال، وذهب إلى جناحه الأيمن الزبير بن الماحوز، ومع كل منهما عدد عظيم من المقاتلة، فلما بلغوا إلى جيشه صاحوا وكبروا فوجدوه على تعبئة، والجنود على مصافهم حذرين مستعدين فلم يصيبوا منه غرة، ولم يظفروا منه بشيء، وتمكن المهلب من تشتيتهم وقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز، فانكفأوا راجعين محرومين مغلوبين إلى كرمان وجانب أصبهان، وكان المغيرة بن المهلب في

هذه الواقعة، إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكس على سرجه وحمل من تحتها فيراها بسيفه، ومزق ميمنة جيش الخوارج، وكان أشد ما تكون الحرب أشد ما يكون انطلاقاً وسروراً، وكان المهلب يقول فيه: ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشر في وجهه.

وتشتد المعارك بين المهلب والخوارج، فلا يوفقوا معه في كثير ولا قليل، وفي سنة ٦٧ نراهم في أرجان وقد بايعوا الزبير بن الماحوز بعد مقتل رئيسهم عبد الله بن الماحوز، ويعاودون المهلب فيكسرهم ويشتت شملهم فيعودون إلى أصبهان، ويتوجه المهلب نحو الوصل.

وفي أواخر ٦٨ هـ يعود المهلب إلى قتال الخوارج وقد بايعوا قطري بن الفجاءة وقد ساروا إلى كرمان فلحقهم وحاربهم في (سولاف) ثمانية أشهر أشد قتالاً رآه الناس، وقتل في هذه الوقائع كثير من أصحاب المهلب، وثبت فيها المهلب وابن المغيرة، وفي هذه الأثناء يتغلب عبد الملك على العراق ويولي على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد، فبعث شقيقه عبد العزيز لقتال الخوارج مع جيش عليه مقاتل بن مسمع، وصرف المهلب إلى الأهواز، فأرسل إليه قطري تسعمائة فأؤس، فاستقبلوا عبد العزيز بفارس وهو يجري بجيشه من غير تعبئة فهزموه وقتلوا مقاتل بن مسمع وأخذوا امرأة عبد العزيز، وقد ذكرنا كيف أن عبد الملك بن مروان غضب لما علم بخبر هذا الفضل وأمر والي البصرة خالد بن عبد الله أن يأخذ المهلب في حرب الخوارج، وأن لا يخرج عن رأيه، وأمر عبد الملك خالدًا أن يخرج إلى الأزارقة بنفسه، وكتب إلى بشر بن مروان عامله على الكوفة أن يمدد بجيش من عنده، فأمدته ببضعة آلاف عليهم عبد الرحمن محمد بن الأشعث. فخرج خالد بجيشه ومن معه من أهل الكوفة، والتقوا بالأزارقة بالقرب من الأهواز، وأشار المهلب على عبد الرحمن أن يخندق على جيشه. فقال له: والله لهم أهون علي من ضرطة الجمل. فقال المهلب: يا ابن أخي، لا يهونوا عليك فإنهم سباع العرب، ولم يتركه حتى خندق. ثم أن خالدًا زحف إلى الخوارج بالناس فرأوا ما لهم، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فانتصر جيش خالد وهزموا الخوارج واتبعوهم يقتلونهم ويسلبونهم. ثم أرسل خالد وراءهم داود بن قحذم ليستأصلهم وكتب بذلك إلى عبد الملك، فأمر عبد الملك أخاه بشر بن مروان أن يبعث من قبله رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فارس ليضم إلى داود بن قحذم ويكون تحت إمرته فأرسل بشر بن مروان، عتاب بن ورقاء في أربعة آلاف من أهل الكوفة، فخرجوا حتى

التقوا بداود بن ورقاء في أربعة آلاف من أهل الكوفة، فخرجوا حتى التقوا بداود بن قحذم بأرض فارس، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نفقت خيول عامتهم، وأصابهم الجهد والجوع، ورجع عامة الجيشين مشاة إلى الأهوار سنة ٨٢ للهجرة.

هذه هي أخبار المعارك التي وقعت مع الخوارج حتى نزول الحجاج إلى العراق، وإرساله البعوث إلى المهلب لمحاربة الخوارج وإفنائهم.

## الحجاج والخوارج

يظهر للمؤرخ الذي يتتبع أخبار الخوارج وغاراتهم وكراتهم وفراثهم وزحوفهم أن المهلب ابن أبي صفرة قائد جيش العراق كان أكثر القواد حظاً معهم، وأبعدهم تمزيقاً فيهم وتأثيراً في إفنائهم، فما كاد يصل الحجاج إلى العراق حتى تمكن الخوارج من تمزيق جيش عبد الرحمن بن مخنف القائد الثاني الذي كان يقاتل الخوارج مع المهلب وقتله، ولم يوفقوا مع المهلب في كثير ولا قليل. فكتب المهلب إلى الحجاج بخبر الفاجعة، فبعث الحجاج على جيش عبد الرحمن عتاب بن ورقاء ثم استقدمه إليه وضم جيشه إلى جيش المهلب فأمر عليه ابنه حبيباً.

ولعل من أروع ما في تاريخ الخوارج زحوف شيب بن يزيد الخارجي وحروبه مع ولاة الحجاج، فإن فيها لوناً جديداً من ألوان التضحية والجرأة والبسالة والإيمان بالعقيدة مما لا يرى القارئ مثله في تاريخ جماعة غير الخوارج، ولا يرى له نظير في غير تاريخ الجماعة الإسلامية الأولى التي خرجت لتنشر دين الله في الأرض، ولتروج لترات محمد "ص" من مشرق الأرض إلى مغربها... ونظن صنعاً إذا عرضنا لأخبار شيبب بشيء من التفصيل فإن أخبار الخوارج موزعة في كتب الأدب والتاريخ بحيث يصعب جمعها في صعيد أحد على القارئ فإذا نحن بسطنا أخبارهم، وتلطفنا في ترجمة زحوفهم فيه حوادث الخوارج على غيرها وسواها.

تحرك في سنة ٧٥ للخروج رجل من بني أمري القيس يقال له صالح بن مسرح - وكان يرى رأي الصفرية - وقيل أنه أول من خرج منهم، فحج في هذه السنة، ومعه أبو الضحاك شيبب بن يزيد الشيباني وسويد، والبطين، وأشباههم

من الخوارج، وكان عبد الملك بن مروان حج في هذا العام، فهم شبيب بالفتك به، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وكان صالح ابن مسرح المذكور ناسكاً خاشعاً مصفر الوجه، صاحب عبادة، وكان يقيم بأرض الموصل، وله أصحاب يقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ويقص عليهم القصص، ومن جملة ما كان يقص عليهم استئثار عثمان بن عفان، وتعطيله الحدود، والجور في الحكم، واستدلال المؤمنين وتعزيز المجرمين، ومن جملة ذلك أيضاً تحكيم علي - كرم الله وجهه - الرجال في أمر الله والشك في أهل الضلال والركون إليهم والادهان، وصار يتبرأ من هذين الإمامين ومن ولاة الأمور بعدهما، ويسميهم أمة الضلال الظلمة، ويدعو أصحابه للخروج من دار الفناء إلى دار البقاء واللاحق بإخوانهم المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم التماساً لرضوان الله، ورغب إلى أصحابه أن يرأسوا كل من كان على رأيهم ليوافقهم للخروج على الولاة، وبينما هم في ذلك إذ قدم علي صالح، بن المحلل بن وائيل اليشكري بكتاب من أبي الضحاك شبيب بن يزيد الخارجي يعرض فيه الانضمام إلى صالح وأصحابه، وأن يكون صالح أمير المؤمنين وشيخ المسلمين. فاستجاب له صالح وكتب إليه بحثه على الإسراع بإقبال إليه. فجمع شبيب أصحابه وقدم على صالح وتواعد الجميع الخروج في صفر سنة ٧٦.

### خروج الخوارج

ولما جاء الميعاد اجتمعوا وهموا بالخروج، ورأى شبيب استعراض الناس وقتل كل من يعرض لهم ممن لا يرى رأيهم. فمنعه صالح وقال له: - بل تدعوهم فإن من يرى رأينا محيينا. ومن لم يرى رأينا فنحن في حل من قتله. ولما ابتدءوا في الخروج وكانوا نحو من مائة وعشرين معظمهم رجاله، وكان لمحمد بن مروان دواب في رستاق بتلك الجهة فشدوا عليها وأخذوها فحملوا رجالتهم عليها، وبلغ محمد مروان خروجهم، وهو يومئذ أمير الجزيرة، فاستخف بأمرهم وأرسل إليهم عدي بن عميرة في ألف فار من حران وكان عدي يتنسك، فخرج إلى صالح المتنسك وكأما يساق إلى الموت، ودس إلى صالح رجلاً يدعو إلى الخروج إلى بلد آخر، ويعلمه أن عدياً يكره قتاله، وإن لم يكن على رأيه، فحبس صالح الرسول وانقض على عدي، وهو قائم يصلي الضحى، وحمل شبيب

وسويد عليه وعلى عسكره وهم غارون، فانهزموا بلا قتال، وركب عدي فرسه ومضى على وجهه، ورجع قلبه إلى محمد بن مروان، فغضب وأرسل إلى الخوارج خالد بن جزء الشامي في ألف وخمسمائة، والحارث بن جعونة في ألف وخمسمائة، فخرجا إليهم واقتتل الفريقان أشد قتال، فترجل خالد والحارث ومن معهما واستقبلوا الخوارج بالرماح، ورشقتهم رماتهم بالنبل، وطاردتهم خيلهم، وفشت الجراحة في الجيشين، وكثرت فيها القتلى، فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم، وتشاور الخوارج فيما بينهم، فقر رأيهم على أن يخرجوا من تحت ليلتهم سائرين. فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة ودخلوا في أرض الموصل، فلما بلغ الحجاج ذلك سرح إليهم الحارث بن عميرة الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة: ألف من المقاتلة الأولى، وألفين من الفرض الذي فرضه الحجاج، فلحقوهم في قرية يقال لها المدبج، على التخوم بين أرض الموصل وأرض جوخا، واقتتلوا فقتل صالح وثبت شبيب مع جماعة وجاء حتى انتهى إلى موقف صالح فوجده قتيلاً، فأمر العسكر بأن يجعل كل رجل منهم ظهره إلى ظهر صاحبه ويطاعنوا عدوهم إلى أن يدخلوا حصناً هناك، ففعلوا ودخلوا الحصن، وأحاط بهم الحارس ممسياً، فجمع شبيب أصحابه وطلب منهم أن يباعدوا من شأؤوا بعد صالح، ويخرج بهم ليلاً ليشدوا على الحارث وعسكر فيابعوه هو، وخرج بهم فلم يشعر الحارث حتى صرع. واحتمله أصحابه وانهزموا ومضوا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك الجيش أو جيش هزمه شبيب ثم ارتفع بأصحابه إلى أرض الموصل ثم إلى أذربيجان.

### انتصارات شبيب

وكان الحجاج قد كتب إلى سفيان بن أبي العالية أن ينزل الدسكرة "وهي قرية كبيرة غرب بغداد" فيمن معه ويقيم بها حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمداني الذي قتل صالح بن مسرح، ويأتيه جيش آخر عليه سورة بن ابجر التميمي، ثم يسير بعد أن تجتمع إليه هذه الجيوش إلى شبيب ويناجزه. وأمر الحجاج بأن ينادي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة: إن برئت الذمة من كل من لم يواف جيش سفيان بن أبي العالية. فأناه جيش الحارث، إلا سورة ابن ابجر فإنه تخلف عنه مع خمسين رجلاً، وأرسل إلى سفيان أن لا يبرح حتى يأتيه، فتعجل سفيان وارتحل في طلب شبيب فلحقه بخانقين، في سفح

جبل، فأكمن له شبيب أخاه، واستطرد له يريه أنه ينهزم، فاتبعه سفيان - وكان عدي بن عميرة الشيباني أشار عليه بأن يأخذ حذره من الكمين فلم يسمع له - حتى إذا توسط يمين الكمين وبين شبيب، رجع إليه شبيب وثار عليه مصاد فهزم هو وجيشه، وصرع سفيان وكاد يقتل، لولا أن حمله غلام له على فرسه، وصار يدافع عنه حتى نجا، وقتل الغلام.. وكتب سفيان إلى الحجاج بما جرى له، فاستحسن فعله، ولام سورة بن ابجر على تخلفه، وأمره أن ينتخب رجلاً ممن معه إلى الخيل التي بالمدائن لينتخب منها خمسمائة فارس ليسير سورة بها إلى الخوارج، وأن يستعمل الحزم في أمره والكيده لعدوه، فإن أفضل الحرب حسن المكيدة، فخرج سورة في طلب شبيب، وشبيب يجول في جونجا، حتى انتهى إلى المدائن، ومنها إلى النهروان، فنزل بها هو وأصحابه وصولاً بها، وأتوا إلى مصارع إخوانهم الذين قتلهم علي رضوان الله عليه فاستغفروا لإخوانهم وتبرأوا من علي وأصحابه وبكوا أطول بكاء، ثم خرجوا فقطعوا جسر النهروان فنزلوا من جانبه الشرقي، وجاء سورة فأخبره عيونه بموضع الخوارج، فاختر من أصحابه ثلاثمائة من أهل الجلد ولقوة والشجاعة وحملوا عليهم فثبتوا لهم وقتلواهم قتالاً شديداً فهزمهم، ورجع سورة بأصحابه إلى المدائن واتبعهم الخوارج، فخرج إليهم أهل المدائن ورموهم بالنبل والحجارة، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن وخرج يسير في أرض جوخا، ثم مضى نحو تكريت. وأرجف الناس في المدائن أن شبيباً قد دنا يريد أن يبيت أهل المدائن، فارتحل عامة الجيش الذي كان بها فلحقوا بالكوفة، فلما رأى الحجاج ذلك قال: قبح الله سورة ضيع العسكر والجند. ودعا بعثمان بن سعيد المعروف بالجزل وأرسله إلى الخوارج في أربعة آلاف، فمضى الجزل، وقدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي على مقدمته، ثم تبعه الجزل، ومضوا في أثر شبيب في أرض جوخا، فجعل شبيب يستطرد له من قرية إلى قرية، ومن ناحية إلى أخرى، ليفرق عنه أصحابه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبئة، وجعل الجزل لا يسير إلا على تعبئة ولا ينزل إلا خندق على نفسه، وأراد شبيب أن يبيت الجزل وأصحابه، فعبى أصحابه - وكانوا مائة

وستين - وجعلهم كراديس، كل كردوس أربعون رجلاً، وجعل لكل كردوس أميراً، فبيتوا عسكر الجزل فوجدوهم محترسين واضعين بكل جهة مسلحة، فتركوهم ومضوا إلي جرجايا. وأرسل الحجاج إلى الجزل يستحثه على قتالهم، فخرج في جيشه يجدون في طلبهم، وبعث الحجاج سعيد بن المجالد ليقاتلهم مع الجزل، وأن يطلبهم طلب السبع، ويحيد عنهم حيدان الضبع، فلما انتهى سعيد إلى الجزل عزم على أن يخرج إلى الخوارج في الحال، وأشار عليه الجزل بالتؤدة وأحكام التدبير فلم يسمع له، فبرئ من رأيه وألقى عليه تبعة تسرعه.. فخرج سعيد وأخرج الناس معه - وقد أخذ شبيب إلى براز الروز، فنزل قطيماً، وأمر دهقانها أن يشتري لهم ما يصلحهم ويتخذ لهم غداء ففعل، وأمر شبيب بباب المدينة فأغلق، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى أتى سعيد في أهل ذلك العسكر، فصعد الدهقان السور ونظر إلى الجند مقبلين، فنزل - وقد تغير لونه - وأخبر شبيباً بأن الجنود أتته من كل ناحية.

فقال له: لا بأس. هل أدرك غداؤنا؟

قال: نعم، فتغدوا وصلوا ثم خرجوا إلى جيش سعيد. وحمل شبيب على سعيد فقتله، وحمل الخوارج على من معه فقتلوا منهم كثيراً. وفر الباقون حتى انتهوا إلى الجزل، فجمع الجزل جميع من معه وقاتلوا الخوارج قتالاً شديداً، وأبلى الجزل بلاء حسناً، ولا زال يقاتل حتى جرح وحمل إلى المدائن جريحاً، وانهزم الجيش ورجع إلى الكوفة مفلولاً، وكتب الجزل إلى الحجاج بما جرى من تؤدته وعجلة سعيد، وما تم من قتل سعيد وانهزام الجيش. ولما قرأ الحجاج كتاب الجزل استحسّن فعله ورضي ما صنعه سعيد وترحم عليه، وأرسل إلى لجزل طبيباً يداويه من جراحة وألّفى درهم ينفقها في حاجته.

ثم أقبل شبيب نحو المدائن، فوجد أهلها متحصنين فيها ولا سبيل إليهم، فراح إلى الكرخ، وعبر دجلة وآمن أهل سوق بغداد - وكانوا يخافونه - وخرج سويد بن عبد الرحمن السعدي في أثره من قبل الحجاج، ولا زال يطارده حتى قطع بيوت الكوفة، إلى الحيرة. واستمر شبيب في سيره إلى الانبار ثم ارتفع إلى أذربيجان. فتركه الحجاج هناك وخرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة، عروة بن المغيرة بن شعبة، فأتى عروة كتاب

من دهقان بايلي يخبره فيه أن شبيبا عازم على أن يدخل الكوفة، في الشهر المقبل فأرسل عروة إلى الحجاج بكتاب الدهقان، فرجع الحجاج إلى لكوفة من فوره، وأقبل شبيب يسير حتى انتهى إلى قرية يقال لها حربى، على شاطئ دلة، فتطير منها أصحابه لإيدانها بالحرب، وقال هو: حرب يصلى بها عدوكم وحرب تدخلونه بيوتهم. ثم نزل عقر قوف. فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤومة الاسم.

فقال: إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم: فالعقر لهم. ثم سار حتى انتهى إلى سبخة الكوفة، فسبقه الحجاج ودخلها عند الظهر. وبعد أن صلى شبيب وأصحابه العشاء وأصابوا يسيراً من الطعام ركبوا خيولهم ودخلوا الكوفة. وشد شبيب حتى ضرب قصر الإمارة بعموده فأثر فيه أثراً عظيماً.

### دخول شبيب إلى الكوفة

ثم اقتحموا المسجد الأعظم فقتلوا من كانوا يصلون فيه، فنادى الحجاج في الناس بالنفير، وجرى علي الخوارج عدة أمراء اجتمعوا بجيوشهم في أسفل الفرات، فترك شبيب الوجه الذي هو فيه وأخذ نحو القادسية.

فوجه إليه الحجاج بزحر بن قيس فيما يقرب من ألف وثمانمائة فارس من نقاوة الفرسان، وأمره باتباع شبيب ومواقفته حيثما يدركه، فالتقى زحر بشبيب في السيلحين وتقاتل الجيشان فانهمز زحر وأصحابه وجرح زحر، ثم أقبل الخوارج على المذكورين أنفأ، وهم على نحو أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة، فقاتلوهم قتالاً شديداً وقتل بعض الأمراء وجرح بعضهم، ووضع السيف في عساكرهم، ثم أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى بيعته فبايعه بعضهم بالليل، فلما أصبح الصبح هربوا، ثم أخذ شبيب نحو نفر، وبلغ الحجاج ما كان من أمره فهاله، وظن أنه يريد المدائن - وهي باب الكوفة - من أخذها فتحت له الكوفة. فبعث إلى عثمان بن قطن وولاه المدائن. ليمنعها الخوارج، ودعا بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأمره بانتخاب ستة آلاف من فرسان الناس ووجوههم، واستحثه على مواجهة الخوارج. وكتب إلى العسكر يتوعدهم بالإيقاع بمن يهرب منهم بأشد من إيقاع العدو، فخرج عبد المطلب يطلب شيئاً، فارتفع

عنه شبيب إلى شهر زور. ولحقه عبد الرحمن، وصار شبيب لا يلقاه إلى وجده على تعبئة أو في خندق فلا يصيب له غرة ولا يعثر منه على علة، فصار كلما دنا منه يتزكه ويمضي حتى عذب عسكره وأخفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء، إلى أن وصل إلى قرية علي تخوم أرض الموصل يقال لها (البت) ليس بينها وبين الكوفة، إلا نهر حولها، فنزل بها ونزل عبد الرحمن في راذان الأعلى، من أرض جوحا، فأرسل إليه شبيب أن يوادعه في أيام العيد فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك، فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج يخبره بذلك، فأمره الحجاج بتولي رئاسة الجيش وأرسل مكانه على المدائن، مطرف بن المغيرة ابن شعبة. فأتى عثمان الجيش وأراد أن يناجز الخوارج في الحال فلم يساعده الجو إذ كانت الرياح شديدة، وكانت تهب على الجيش، فأقام يوماً وليلة وحتى هدأت الرياح، ثم عبى جيشه وزحف به على شبيب، وزحف شبيب بأصحابه عليه، وكانوا نحو مائة وثمانين رجلاص. فهزم الخوارج جنود عثمان ووضعا السيف فيهم، وقتلوا معظم عرفائهم، ثم رفعوا السيف عنهم ودعوهم إلى البيعة لشبيب فباعه كثير منهم، ورجع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الكوفة، فاختبأ من الحجاج حتى أخذ منه الأمان، وكان ذلك سنة ٧٧ للهجرة.

وبعد أن هزم شبيب جيش عبد الرحمن وقتل عثمان بن قطن وكان ذلك في صيف شديد الحر، أتى ماه بهراذان، فصيف بها ثلاثة أشهر، واتاه ناس كثير ممن يطلب الدنيا، وممن كان الحجاج يطالبهم بمال أو غيره فلحقوا به، ولما انفسخ الحر عن شبيب خرج من ماه بهراذان، في نحو ثمانمائة فأقبل نحو المدائن، فكتب دقهان بابل مهروز، إلى الحجاج يخبره بذلك، فقام الحجاج ي أهل الكوفة، يدعوهم إلى المدافعة عن بلادهم وعن فيئهم، وإلا بعث إلى أهل الشام ليقوموا مقامهم، فوعده الناس من كل جانب بالقتال والعمل بما يسره، وقام إليه زهرة بن حوية، وهو شيخ كبير لا يقدر على القيام إلا إذا أخذ بيده، فأشار عليه باستنفار الناس جميعهم إلى الخوارج تحت أمره رجل تشجاع مجرب للحرب. فرغب إليه الحجاج أن يكون هو أمير العسكر، فاعتذر بأنه شيخ هرم ضعيف البدن ضعيف البصر، وإما

يصلح لهذا رجل يحمل الرمح والدرع ويهزم السيف ويثبت على متن الفرس، وتطوع على أن يكون مع الأمير في عسكره يشير عليه برأيه، فجزاه الحجاج خيراً على نصحه وصدقه، ثم أمر الناس بالمسير فساروا ولا يدرون من أميرهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان أن شبيباً شارف المدائن، وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهلها عن قتاله في مواطن كثيرة، ورغب إليه في أن يبعث إليه جنداً من أهل الشام، فأرسل إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف وحيب ابن عبد الكريم الحكمي المذحجي في ألفين، فسار أهل الشام حتى دخلوا الكوفة، من طريق مختصر أرشد إليه الحجاج، وأرسل الحجاج إلى عتاب بن رقاء، فجاء إليه عتاب فجعله أميراً على جيش أهل الكوفة، فخرج بهم وعسكر بحمام أعين، وأقبل شبيب، فقطع دجلة، ونزل مدينة بهرسير، وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة فقطعه. طرف وأرسل إلى شبيب أن يرسل إليه بعض وجوه أصحاب ليدرهم القرآن وينظر في رأيهم، فأرسل إليه شبيب رجالاً منهم قعنب وسويد والمحلل، فمكثوا عند مطرف أربعة أيام دون أن يتفقوا على شيء. فلما تبين لشبيب أن مطرفاً غير تابعة، تهيأ للمسير إلى عتاب وأهل الشام، وخاف مطرف أن يبلغ الحجاج ما كان منه مع شبيب فينتقم منه فخرج إلى المدائن، مع أصحابه وسار شبيب مع أصحابه إلى عتاب بسوق حكمة. وكانوا نحواً من ألف تخلف منهم أربعمائة. وكان مع عتاب نحو من خمسين ألفاً ونشب القتال بين الخوارج وجيش عتاب فهزم جيش عتاب.

وكان عتاب جالساً في قلب الجيش مع زهرة بن حوية إذ غشيهم شبيب فقال عتاب لزهرة: هذا يوم كثر فيه العدد وقل الغناء.

فقال زهرة: ابشر فأني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناء أعمارنا. فلما دنا منه شبيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه، وقاتل قتالاً شديداً حتى قُتل، وقتل معه زهرة بن حوية، واستمكن شبيب من أهل العسكر وأمر أصحابه برفع السيف عنهم، ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس، ولكنهم هربوا من تحت ليلتهم، ثم أقبل شبيب إلى الكوفة وقد دخلها سفيان بن الأبرد بأهل الشام، فاشتد الحجاج بهم واستغنى عن أهل الكوفة وقال لهم: ”يا أهل الكوفة لا أعز

الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد بكم النصر، وانتهى شبيب حتى نزل موضع حمام أعين، فدعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة الثقفي فوجهه في ناس من الشروط لم يشهدوا يوم عتاب، ومعهم نحو مائتين من أهل الشام، فبلغ عدد الجميع نحو ألف مقاتل. فالتقوا بشبيب في زرارة، فحمل عليهم فهزمهم وقتل رئيسهم الحارث، وأقبل إلى الكوفة، ونزل بالسبخة وابتنى بها مسجداً. وأمر الحجاج أهل الكوفة، بالأخذ بأفواهاها وصار يخرج إلى شبيب جماعة بعد أخرى، وعلى كل جماعة أحد غلمانة في ثياب فاخرة وخيل فارهة، وشبيب يظنه الحجاج فيقتله ويقول: 'إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه.

ودخل حينئذ الكوفة ومعه امرأته غزالة، وكانت نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران ففعلت.

### الحجاج يقاتل شبيباً

فلما رأى الحجاج ذلك نزل إليه بنفسه في أهل الشام وهو على بغل محجل مباشر به وقال: هذا اليوم أغر محجل. وكان شبيب في ستمائة فارس، فأقبل عليه شبيب يقاتله، ودعا الحجاج بكرسي وجلس عليه وحث أهل الشام على صدق القتال. فاستقبلوا القوم بأطراف الأسنة، وجثوا على الركب وأشرعوا الرماح، وثبتوا لأصحاب شبيب، وصاروا يطعنونهم قُدماً، وصار الحجاج يقدم كرسيه شيئاً فشيئاً، وهو يحرض أهل الشام على القتال. وصار شبيب يستحث أصحابه ويحرضهم على الصبر. واقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً وأهل الشام يدفعون أصحاب شبيب إلى أن انتهوا إلى المسجد الذي ابتناه. فقال الحجاج: يا أهل الشام، يا أهل السمع والطاعة، هذا أول الفتح، والذي نفس الحجاج بيده. وحمل خالد بن عتاب بن ورقاء على شبيب وأصحابه من وراءه حملة موتور حران، فقتل مصاداً أخا شبيب وقتلت في هذه الواقعة غزالة امرأته، وانهزم شبيب ومن بقي معه من أصحابه، فأمر الحجاج داخل بن عتاب باتباعهم فأتبعهم، حتى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً هناك فحصرهم خالد فيه، فخرجوا عليه فهزموه ومن معه نحواً من فرسخين حتى ألقوا بأنفهم وخيلهم في دجلة، وألقى خالد بنفسه وفرسه.

فنظره شبيب فقال: قاتله الله فارسًا وفرسه. هذا أشد الناس وفرسه أقوى فرس.  
ف قيل له: هذا خالد بن عتاب.

فقال: معرق في الشجاعة والله لو علمت لأقحمت خلفه ولو دخل النار.

### مقتل شبيب

ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحكمي وبعثه في أثر شبيب في ثلاثة  
آلاف من أهل الشام وقال له:

احذر بياته وحيثما لقيته فنازله، فإن الله قد فل حده وقصم نابه.

فسار وراءه حتى بلغ الأنبار، وهناك بيتهم شبيب فوجدهم حذرين،  
فقاتلهم هو وأصحابه - وكانوا ثلاثين - قتالاً شديداً جداً حتى قال بعض أصحاب  
حبيب: لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة رجل لأهلكونا، فلما يئس شبيب  
وأصحابه من القوم انصرفوا عنهم ومضوا حتى قطعوا دجلة إلى الأهواز، ثم إلى  
فارس ثم ارتفعوا إلى كرمان، فأمر الحجاج سفیان بن الأبرد أن يسير إليه، فلحقه  
بجسر دجيل الأهواز وانضم إليه زياد بن عمرو العتكي في أربعة آلاف. فقاتلهم  
شبيب وأصحابه أشد قتال قاتله قوم. فلما أتى عليهم المساء أمر شبيب أصحابه  
أن يعبروا النهر حتى إذا أصبحوا باكرهم. فعبروا أمامه وتخلف في أواخرهم،  
فأقبل على فرسه فنزا فرسه على فرس كانت أمامه، فوقع حافره على حرف  
السفينة، فسقط في الماء وسقط معه شبيب وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر  
وغيرهما، فغرق وقال له بعض أصحابه وهو يغرق: أغرقاً يا أمير المؤمنين؟

قال: ذلك تقدير العزيز العليم. فلما رأى أصحاب شبيب غرق أميرهم  
انصرفوا وتركوا معسكرهم ليس فيه أحد.

ولما أصبح سفیان وبلغه غرق شبيب وانصراف أصحاب كبر وكبر أصحابه  
معه، وطلبوا شبيباً واستخرجوه من النهر، وشقوا بطنه وأخرجوا قلبه فرأوه  
مجتمعاً صلباً كأنه صخرة، وكان يضرب به الأرض فينزو نحو قامة إنسان.  
فشقوه فرأوا في داخله قلباً صغيراً كالكرة، فشقوه فأصابوا علقة الدم في داخله.  
وكان غرقه في سنة ٧٧ أو في سنة ٧٨ على اختلاف الرواية.